وهم اسمه "الحرية"

فاديا جبريل

من قلب أكثر الدول ديمقراطيةً، كما يزعمون، وعبر فضاءاتها التي حملت إلينا التهديد والوعيد بضرورة إطلاق الحريات العامة، وعلى رأسها حرية الرأي.. جاء الدليل بأن لحن الحرية مضبوط إيقاعه جيداً، والمايسترو بيد من عرف جيداً كيف يوظّف تلك الحالة التي يتوق إليها بني البشر، خدمة لأهدافه ومصالحه، وأن قناع الحرية والديمقراطية الذي تلبسه تلك الدول يجب أن يُخلع بين الحين والآخر، لتحذير الغارقين في الوهم، أو لمن يتراءى له الوهم حقيقة، بأن عليه أن يستفيق وأن يكون حاضر الذهن، فللعبة قواعدها الصارمة؟!..
الدليل هذه المرة جاء مغلفاً بنبأ إقالة الصحفية أوكتافيا نصر محررة شؤون الشرق الأوسط في شبكة cnn، وطرد هيلين توماس الناطقة الإعلامية باسم البيت الأبيض، وتعنيف فرنسيس غاي سفيرة بريطانيا في لبنان.

فما هي جرائم هؤلاء كي يضيق "قانون الحرية العصري" في الغرب عن استيعابها؟.

في لحظة صدق مع النفس وخارج أوقات "الضبط الساعي"، كتبت فرنسيس غاي سفيرة بريطانيا في لبنان في مدوّنتها على شبكة الانترنت مقالاً بعنوان "موت رجل شريف" ذكرت فيه أن المرجع الديني السيد محمد حسين فضل الله هو أكثر شخص سُعدت بلقائه، وأن العالم يحتاج إلى مزيد من أمثاله. ولم تتطرق في مقالتها إلى ما يعنيه السيد فضل الله في الساحة السياسية اللبنانية..! فقامت الدنيا ولم تقعد وسط هلع وخشية الحكومة البريطانية من غضب زعماء المافيا الصهيونية، حيث تم سحب المقال... بل وأكثر من ذلك حين أطلّ علينا الناطق باسم وزارة الخارجية البريطانية محاولاً محو آثار الجريمة التي اقترفتها السفيرة غاي، ليعتبر أن ما حدث كان خطأ، وأن رأيها لا يمثل سياسة الحكومة البريطانية، فما كان من غاي إلا محاولة إصلاح ما أفسدته عليها لحظة الوهم بالحرية، لتقول تصحيحاً: "إن وجهات نظر السيد فضل الله لم تؤدِ سوى إلى تأجيج الانقسامات في هذا الجزء المعقّد من العالم".

والصحفية أوكتافيا نصر محررة شؤون الشرق الأوسط في شبكة cnn الأمريكية وقعت في "مطب" الوهم ذاته، وأيضاً خارج أوقات "الضبط الساعي"، ففي صفحتها على موقع تويتر أبدت إعجابها بالسيد فضل الله، مشيرة إلى حزنها العميق لسماع نبأ وفاته.. فكانت العاقبة "العقوبة" وكان الفصل، حيث لم تشفع لها سنين خدمتها الطويلة في القناة ولا كفاءتها التي أوصلتها إلى مرتبة أهلتها لتكون من كبار محرري الشبكة..!.

أما هيلين توماس البالغة من العمر ٩٥ عاماً فهي حكاية أخرى، حيث تعدّ جزءاً لا يتجزأ من تاريخ البيت الأبيض منذ العام ١٩٦١، وفي غفلة من الزمن، ولربما تحت تأثير تقدم العمر، تهيأ لتوماس أنها تمارس عملها من قلب الديمقراطية والحرية... وهنا الزلة التي أودت بها خارج البيت الأبيض، إذ نطقت بالحقيقة وبما تؤمن به، ولكنها لم تحسن لا المكان ولا الزمان، فكان طوفان المطالبات باستقالتها وطردها، وكل ما في الأمر أنها قالت: "فلسطين أرض محتلة وهي للفلسطينيين"... وهذه جريمة كبرى تعاقب عليها "القوانين الديمقراطية" لساسة ولوبي البيت الأبيض...!!.

إن ضحايا الوهم الثلاثة دليل ومثال واضح أن لا خلاف بين الشرق والغرب فيما يدّعيه الأخير من حريات، هم فقط يجيدون صناعة الأقنعة جيداً، كما يجيدون صناعة الطائرات وغيرها.. وهذا هو الفرق.

ولعلنا في النهاية نتساءل: ماذا لو حدث ما حدث لمثل هؤلاء في شرقنا؟! كم كنا سنسمع من إدانات وموجات شجب واستنكار، وتوبيخات ومطالبات من هذه الدول ومن ينضوي تحت لوائها من منظمات وجمعيات أهلية وغيرهم، وحتى الأمم المتحدة ستأخذ نصيباً من حملة الإدانة والتوبيخ، ليس فقط لإثبات عدم وجود حريات في الشرق، وإنما لإثبات حالة الوهم التي عمّموها على العالم بأن الغرب هو منارة الحرية والديمقراطية؟!.